

بضعة أيام في الجليل

لا تعرف البلاد كما هي الابروية القرى والساكن قبل القواعد والحواسر فالقلاح
ميزان العمران ان سعد سمعت البلاد كلها وان شقي شقيت خصوصاً في مثل هذا القطر
الذي يعول على الزراعة في حياته . وتجارة . وصناعاته ضئيلة .

قصدا الى عكا هذه الآونة فشهدنا فيها ^(١) ما لم نتمكن في العام الفائت من مشاهدته
رأينا حيفا بلدة يهودية الا قليلاً وسأنا أحدكم عن عدد طلبة العلوم الدينية فيها
يقسمون الشعائر وينظرون في احكام الحلال والحرام فلم نرا احداً حتى اذا جئنا عكا
كان اول استئنا عن عدد طلبة العلوم الدينية فاخبرنا بان عددهم اليوم يتناقص وهم يلغون
نحو الثلاثين فتننا قال خير اذا اتقنوا كلهم ما لفتوه يسدون بعض الحاجة سبلهم ارض
الجليل الذي ضعف فيه السائر في كل شيء ولا سيما في دينهم . والمسلم مها لقيت به
الاحوال يحتاج الى امام وخطيب ومفت ونايب وواعظ . ولئن لم يساعدنا الوقت على
الاختلاط ببعض هؤلاء الطلبة ولكننا شهدنا من فضل استاذهم الشيخ عبد الله الجزار
ونفقوا ما رجح عندنا ان الفرع يتبع أصله والناس تبع لائمتهم ومرشدتهم

ليس الاستاذ الجزار اليوم كالجزار (احمد باشا) امس هذا كان يرهق الاشباح
في هذه البلاد ايام استيلائه عليها وذلك بحبي الارواح بالعلوم الدينية والاسكانية .
الكافي بوشناق والاول عربي . ذلك تولى زمام الاحكام فافسدها في القرن الماضي وهذا
على قلة التصبر يعلم في بلد قل فيه من يحب ان يتعلم . هذا أفام مدرسته على انقراض
المدرسة التي بناها ذلك فاعاد لبلده شيئاً من رونقها وجمع لطلابه مكتبة حافلة بالاسفار
العلمية الدينية المختلفة يشتفبها عقول الطالبين المسترشدين . ولوسعى كل فقيه من فقهاء
الاسلام بتعليم قومه على نحو ما فعل الشيخ الجزار لما اضمحلت العلوم الاسلامية فوصلت
الى الحالة السيئة التي نراها عليها الآن وأكثرهم يفتنون ويؤمنون ويخجلون ويعطون
ويعلمون بلا علم ولا انقي .

بنينا ليلتنا في قرية ظاهر عكا اسمها المكر ولعلها المقر . ومن الغد ركبتا ومعنا دليل

(١) راجع ما كتبناه في ارض الجليل سنة الجزئين الاولين من السنة السادسة

بدلنا على طريق صفد فاغذنا السير حتى وصلنا قرية الرامة^(١) وهي في منتصف الطريق على نحو خمس ساعات من عكا وخمس من صفد بعد ان مررنا بقرية مجد الكروم وارض دير الاسد وبعثة ونحف وبيجور. وزراعة هذه البلاد الخنطة والشعير والكرستة والحلبة والبطيخ واشجارها التين والزيتون واللبنون الحلو وهو في قرية الرامة فقط كما ان زيتونها أجود ما وقعت العين عليه في هذه الديار وما ذلك الا لان أهلها توفرُوا على العناية بأشجارهم وحموها من فؤوس المحتطبين وأسنان الموائبي وحوطوها وحرثوا أرضها وتلطفوا في قطف ثمرها حتى جادت غلة زيتونهم كل سنتين والزيتون هنا كما هو في معظم البلدان يحمل سنة ويحمل أخرى وتضمن أعشار زيتون الرامة فقط بألف ومائتي ليرة

مررنا بارض بيجور فرأيناها عامرة أكثر من غيرها من القرى المجاورة. وأنا عن صاحبها فقيل لنا انه غني من أهل عكا اسمه فؤاد بك سعد فقنا: سبحان الله أبت الدرهم الا ان تخرج اغناقها. هذا الرجل ينفق نعمة غناه في اصلاح التربة والغراس والفقر في جواره بكسله وقلة وسائله يكاد لا يجد سداداً من عوز وبيعش عيش القلة. نحن ممن يقول بحفظ ثروة الاغنياء وابتعاد الاسباب ليزيدوا غنى واقدماء على نسبة ثروتهم لانهم مادة الاقتصاد في البلاد ولكن على شرط ان يكونوا مثل من مد يملك بضع قرى في لواء عكا وهو اغنى غني فيه تربو ثروته فيما بلغنا على مئة وخمسين ألف ليرة جمع هو بعضها والبعض الآخر ورثه عن ابيه وورث عنه مضاء ومعرفة عملية واهلية للاثراء على الاصول جعلت منه رجلاً بفيده ويستفيد من غناه.

نحن لانعرف هذا الرجل الا بالاسم ولكننا عرفناه باعماله في ترقية زراعته وابتعاد المعامل مثل معمل ثلج لعكا وآخر لحيفا ومعصرة زيت على الطريفة الاوربية في الرامة واخرى في المغار وغير ذلك من تجارته وزراعته. اعجبنا بعمله لاننا رأينا في دمشق وحلب وبيروت وحمص وحماة ونابلس عشرات مثله بل اغنى منه فلم نرهم مكترئين

(١) رامة هي بلدة كبيرة كما قال صاحب جغرافية الكتاب على نحو ٨ اميال غربي صفد و ١٥ ميلاً من عكا بين الشرق والشمال الشرقي وهي غير خربة الرامة قرب بيت ليف وغير الزام الواقعة على ٦ اميال شمالي القدس وغير الرامة الحربة الواقعة على ٣ اميال الى الجنوب الشرقي من صور. وغير رامة المصفاة ورامة الجنوب التي ذكرت في الكتب المقدسة وغير رامة منزل بينها وبين الرامة ليلة في طريق البصرة الى مكة وفيها جاء المثل تسألني برامتين سلجماً

بالكسب على الاصول والانفاق كذلك رأينا غاليهم اغتنوا بالعرض امامارنفاع قيم الاملاك والعقارات او بطرق اخرى غير شرعية فخرصوا على مآب أيديهم ورأوا الخروج عن مألوف عادات الآباء سيفي الاكتساب مما يقربهم من الفقر .

قال لفاثقة ان ابن سعد هذا ينفق في السنة من فضل ماله على تعليم بعض ابناء طائفته واقامة المعابد والمدارس لها سيفي القرى مبالغاً لا يستقل به وقد كانت زراعته ومعاصره خير مرشد لجيرانه ولا سيما المسيحيين فقلدوه واصبحت المعامل القديمة تخرج الزيت احسن من ذي قبل وترتج كذلك ونحن لو جرى الاغنياء على هذه الصورة سيفي تحسين مزارعهم والافصال من اموالهم بحسب الطاقة لرقيت البلاد سيفي بضع سنين درجة مهمة في العمران ولكن من اغنيائنا من ابتلوا بالشح المعقوت والجهل المطبق حتى انهم ليضنون بالقرش في تعليم اولادهم ولا يستكثرون المئات بنفقتونها على شهواتهم وتكبير مظاهرهم بالباطل في عيون العامة والجهلاء .

رأينا من اغنياء دمشق وحلب وبيروت من افسدوا اخلاق الناس بما حملوه الى هذه البلاد من الموبقات وضروب الملاهي والشور فسيحهم مفرنج ومسلمهم منترك عبد القوة وريب الشهوة يرون المجد كل المجد في التزلف من الحكام لا يوقرون الا من يخافون ولا يحدون الا على ما يشتهون . مسلمهم ابطل الزكاة احم اركان الاسلام حتى كاد يجيب الى النفوس الاشتراكية المفرطة والفوضوية الضارة . ومسيحيهم يرضخ لابناء طائفته بدرام معدودة حب الشهرة وقطعاً للالسن كان القوم نسوا ان اتفاق المال في عمران البلاد والاخذ بايدي الفقراء من اهلها لتشلهم من فاقتهم وانقاذهم من جهالتهم سيعود عليهم ولو بعد حين بقى أكثر ولذة ونفع والعمران سلسلة يرتبط اعلاها بادناها ويهتز اولها بحركة آخرها على السواء .

نقول المسيحي والمسلم وما احرانا ان نقصر الكلام على المسلم الغني لاننا رأينا اشد ايغلاً في الارتباك بجيائه وحياته والعدم سواء . تعرف رجلين في حلب ودمشق يمكنان من المزارع الواسعة عشرات وتحسب ثروتهما بمئات الالوف من الليرات ورثا ذلك الغنى فأساء الى العمران والانسانية فترى مزارعهما خربة لا يوفران على تعهدا ولو صرفا عليها بضعة الفوف من الليرات لاحتيا بها الموات العظيم ونفعها خلقاً كثيراً من السكان شغلاهم فيها عن الهجرة الى اميركا وقد افسدوا الاخلاق بما ألفاه من الشهوات كل ذلك لانها لم يربيا التربية المطلوبة فتشاً كالسائمة وقد فح عيونهما على ثروة لم يسبها علمها

ان الاسف على عقول لا يستفاد من ذكائها كالاسف على تربة لا يستفاد من زكائها
وكم في البلاد من اراض معطلة لا يستطيع اكثر مالكيها تعيدها لكراسة في ايديهم وصغر
في عقولهم وضعف في نظرهم . نحن لانلوم الصهيونيين وغيرهم من المستعمرين في بلاد
الجليل و فلسطين بقدر ما نلوم اولئك الذين يملكون الاملاك الواسعة مما لو طبقت الحكومة
عليهم قانونها القاضي بنزع الملك من صاحبه اذا لم يزرعه ثلاث سنين متوالية
لنزعت جانباً مهماً من الاراضي الزراعية في السهول والقيعان والجبال من يد مالكيها
او مقتصبيها

نوجه هذا الكلام القارس للاغنياء لانهم هم مادة البلاد ولانا لانتوقع من الفقير
عملاً يذكر وحكومته لم تربه التربية المطلوبة في الامس ليحسن العمل المطلوب منه
اليوم . فقد مررنا في طريقنا الى صفد بقرى كثيرة وكنا نشهد الفرق محسوساً بين
قرى المسلمين وقرى المسيحيين اولئك لم تعمل لم يحكمهم الا انها اسلمتهم لجباة الضرائب
والعشور والاعانات وسوق من تسوق الى الجندية وتركهم لقعة في يد صاحب النفوذ وشيخ
البلد لم تعمر لم مدرسة ولا جامعاً ولم ترسل لهم طبيباً ولا واعظاً اما جيرانهم المسيحيون
فقد اعتمدوا على ابرشياتهم ومطاراتهم واكثر هؤلاء على جانب عظيم من الفيرة والغفل
فأسسوا لهم بيعة ومدارس وكتائب وهزوا اكف اغنيائهم واهل الخير في بلاد الغرب
واستعانوا باموالهم على الاعمال الناعضة على ما ترى ذلك ماثلاً في كاثوليك حيفا والبصة
وشفا عمرو وترشيحة والمغار من اهل هذه الديار ومطاراتهم غريغور يوس حجار يسعي
ليله ونهاره في انتهاضهم ومن ورائه و وراء الطوائف النصرانية الاخرى الجمعيات الروسية
والفرنسوية والالمانية والانكليزية والاميركانية والاميرائيلية تفتح المدارس في كل قرية
ومزرعة فيها بضعة من الكاثوليك او الروم او البروتستانت او الاميرائيليين

نعم ان المسلم في بلاده هذه جاهل لقلة من يتعهد امره وغيره يرفي السنة بعد
ال اخرى ومعرفة ذلك سهلة لكل من يختلط بالفر بقين فيفهم درجة عقولهم ويقرأ صورة
معايشهم وترتيب بيوتهم ونظام أسراتهم . ورفي الراقي منهم ناشئ من خروجه على الاقل
عن درجة الامية واستنارة عقله بالتربية الجديدة

وبينا ترى وجه قومنا اذا قدر له ان يفكر في تربية ولده يهدها الى مدارس
الحكومة وهي احط مدارس بتصورها العقل في بلاد تدعي المدنية رجاء ان يجي منه
غداً موظف بعيش كلاً على عائق الامة تشهد الوجبة في غير المسلمين يعلم اولاده

الصناعات الحرة كالهندسة والزراعة والتجارة وغير ذلك ولك بهذا ان تحكم على مستقبل اولادهم واولادنا .

نحن لانعجب لارتفاع الزراعة في قرية الجاعونة من بلاد صفد ولا المجدل من اعمال طبرية ولا زمارين من عمل حيفا مثلاً لانها ملك الجمعيات الصهيونية غنية في الغرب لتفق عليها المقصد ديني صيامي عن سعة . ولكننا نعجب كل العجب من مسلم لا يحذو في تربيته ومعاشه حذو اخيه المسيحي في مزارع الاسرائيليين تعمل رؤوس اموال شركائهم ومعارف اوربا في تجو يد الزراعة وفي مزارع الوطنيين غير المسلمين بعمل حسب الترتيب وحسن التربية وارادة الكسب والرفاهية فقط .

وبعد فكلما تقدم السائر من بعد قرية الرامة يتراءى له الخطاطم الزراعية واهمال الفلاح المسلم لزيتونه وتينته وكرمه بل لغلاته السنوية بحيث اصبح دون موطنه الدرزي ولقدروز عناية في الجملة باراضيهم وغرسها ومنهم في بعض قرى عكا ومنهم في قضاء صفد وبلادهم جبلية كما هي العادة . واهم ما شهدناه قبل صفد بساعتين شلال ماء يسي احدى القرى هناك يجري من شاهق جبل عال ويضيع بين الصخور في الطريق وهو بائه دون شلال تل شهاب في حوران الا انه يمكن استخدامه فيما تحسب للتشوير عكا وحيفا بالكهربائية وتسيير ترام كهربائي فيها .

وقد اصيحت بلاد صفد ^(١) وهي ٤٩ قرية ومزرعة جرداء من غاباتها بفضل الاهمال

(١) كتب نعيم افندي فاكهاني في جريدة المقتبس الاحصاء الآتي:

اهل صفد يتوفرون على زراعة الحبوب والفواكه والزيتون والعنب قليلة فيها وتجارتها ضعيفة لعدم وجود سكة حديدية والقضاة مؤلف من خمس واربعين قرية ونفوسه نحو ستين الفا منهم ثلاثون الفا مسلمون والفاان مسيحيون كاثوليك وروم والفا وخمسمائة دروز وستة وعشرون الفا وخمسمائة امرايليون عثمانيون واجانب وفي صفد فصولاتو للبحر وفصولاتو لغراس وفصولاتو للتدريس ووكيل لقنصل انكليزا ومستشفى ومدرسة للبريستانت وعن قريب نتم كنيسة لهم وبنك للاسرائيليين وشعبة لبنك انكلو فلسطين وصراف وقهوتان الواحدة على الطرز الحديث واحيانا تقتل فيها روايات ادبية او يقام معنى عربي وانتمارات كثيرة تبلغ نحو اربعين وهي في البيوت والدكاكين والحكومة تعترف بثلاثين منها وفي صفد حمامان للاسرائيليين وواحد للمسلمين وسبعة افران للاسرائيليين واربعة للمسلمين وتزلان امرايليون والحكومة اربع مدارس الواحدة رشدية والاخرى

وكانت منذ عشرين سنة كثيرة ومنها الضخم تسد الحاجة وتلطف الهواء وتعديل نزول
الامطار حتى ان القوم هنا يبحثون عن جذوع الحراج للوقود والتدفئة الآن وماندري
بم يصطلون ويوقدون بعد سنين

ومدينة صفد تربو نفوسها على ثلاثين الفا نصفهم من الاميراثيليين وهي على عدة
قم وآكام عالية وفيها المياه مثل مدينة مرجعيون وقد جلب الماء في انابيب حديد الى
أكثر احيائها من جبل بيرية الواقع جنوب صفد على نصف ساعة منها فكلف ثور التي
ليرة خفف على السكان بعض العناء في الاثقاء وحفظ ماءهم من الكدر ولو صرفت
ادارة الترابعة خمسة آلاف ليرة على طريق يربط صفد بطبرية والمسافة بينهما خمس
ساعات ايضا لاتصلت صفد بالخط الحجازي واصبح ابن دمشق يأتي صفد في يوم واحد
خصوصا والعلاقات التجارية والزراعية مستحكمة بين الصنفين واهل ولاية سورية
لما تحتم قضائهم لقضاء القنيطرة حتى ان في صفد حيا خاصا بالاكراد كالحلم في صالحة
دمشق .

وطول جبل الزابود المشهور في كتب وصف البلدان نصف ساعة من شمالي ميرون
للغرب وفي قمته مياه عذبة وبناوحه من الجهة الثانية جبل كنعان وهو اخصب وامرع
وانقى هواه فصفد بين منفرج هذين الجبلين ولكنها هي ايضا مبنية على رؤوس جبال
اشبه بمدينة الاسفانة ويذكرون ان في رأس وادي الطواحين غربي صفد عين اسمها
عين جن بلحس منها ماء وينقطع في الساعة ولا تزال كذلك على الدهر وماؤها
يدير مطحنة .

والطريق من صفد الى طبرية كله انحدار قوي حتى يصل الى بحيرة طبرية والهواء

للاناث وثلاثان ابتدائتان وسبعة جوامع وكنيسة واحدة للساكوثليك ومدرسة واحدة وخمس
كنائس للاميراثيليين وخمس مدارس ابتدائية دينية ومدرسة عالية للاتحاد الاسرائيلي
(الايانس) للذكور والاناث وواردات القضاء اثنا عشر الف ليرة من الاعشار وبعة
آلاف ليرة ويركو وتمنع وتسعائة ليرة واردات البلدية ودخل البريد والبرق الفا ليرة
ودوائر الحكومة كاملة اللهم الا هيئة العدلية وزراعة الاسرائيليين ارقى من زراعة
غيرهم لانهم يزرعون على الطرز الحديث وقسم من الاهالي موظفون في الحكومة
ومنهم من يتوفر على الزراعة ومنهم مكارون وحجارة وبنائون وفي صفد كثير من الاسرات
الشريفة القديمة

يختلف في الحال من البرودة الى الحرارة لوقوع صدف في رؤوس الجبال وارتفاعها ٨٣٨
متراً عن سطح البحر وهو الى ارتفاع في ارض الجليل ولاخطاط طبرية عن سطح
البحر ٢٠٨ امتار . ولئن كانت صدف تعد من المدن المقدسة عند اليهود وينزل المسيح
الى الارض منها بحسب رأيهم فان المستعمرين من الامريائيين لم ينزلوها الا في القرن
السادس عشر وقدما . تولى عليها الصابيون واستخلصها منهم صلاح الدين يوسف ثم سقطت
في يد الظاهر بيبرس واحتلها الفرنسيين سنة ١٧٩٩ مدة قليلة وفي سنة ١٨٣٧ اصابتها
زلزال جعل عاليها سافلها ولم بعد اليها بعض الزونق الا في العهد الاخير . ويقل الزيتون
في قضاء طبرية اللهم الا ما كان في قريتي حطين ولوية وعدد قري هذا القضاء ٢٦ اكثرها
ملك للصهيونيين ويوشكون ان يتناعوا البقية الباقية فيحيونها بعد مواتها

اخبار وافكار

مخطوطات نادرة في مكتبة شيخ الاسلام

بالمدينة المنورة

انحرف الاخصاف فضائل المسجد الاقصى للشيخ ابراهيم بن محمد الاسيوطي . الاعلام
باعلام بلد الله الحرام للشيخ قطب الدين المكي التتبي . اعلام العلماء الاعلام بحال
بناء المسجد الحرام للشيخ عبدالكريم بن نغرا الدين القطبي . الانس الجليل بتاريخ القدس
والخليل للقاضي محمد الدين ابي اليمن عبدالرحمن العامري . الانس المطرب بروض القرطاس
في اخبار ملوك الغرب وتاريخ مدينة فاس للاديب ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابي
زرع العامري . اهداء اللطائف من اخبار الطائف للشيخ حسن بن علي المعجمي .
البدور المتألق في محاسن جلق ويعرف بمحاسن الشام للسيد محمد بن السيد مصطفى الشهير
بان الراعي الدمشقي . بغية المستفيد في اخبار مدينة قزوين لعبد الرحمن بن علي الشهير
بالديبع . تاريخ حلب مجهول مؤلفه . تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام للقاضي
بدر الدين محمد بن ابي بكر بن جماعة الكتباني الحموي . تحصيل المرام من تاريخ البلد
الحرام لثقي الدين الحسيني . تحفة الدهر ونفحة الزهر في اعيان المدينة من اهل العصر
للعلامة عمر بن المادرس عبد السلام الداغستاني المدني . تحفة النابلسية في الرحلة
الطرابلسية للشيخ عبد الغني النابلسي . تاريخ السخاوي في المدينة المنورة (سيح دار